إِقَامَةُ البَرَاهِيْن

عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً أَفْضَل المُرْسَلِيْن

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيْ المِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد الخلق وحبيب الحقِّ سيّدنا مُحَمَّد وعلى آله الطيِّبين الطَّاهرين ، وصحابته الغرِّ الميامين ، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدِّين ، قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾﴿آل عمران : ١٠٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾﴿النساء:١﴾ ، وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾﴿الأحزاب: ٧٠-٧١﴾ ، أمَّا بعد :

فقد قرَّر الله تعالى في كتابه الكريم المفاضلة بين الرَّسل الكرام ، وأنَّ بعضهم أفضل من بعض ، كما في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾﴿البقرة:٢٥٣﴾ .

وقد أجمعت الأمَّة على أنَّ الرُّسل أفضل من الأنبياء ، ثمَّ الرُّسل متفاضلون فيما بينهم ، وأفضلهم : أولوا العزم ، وهم خمسة : سيّدنا مُحَمَّد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

والتَّفاوت فيما بينهم لا يجري من جهة النبوَّة ، إذ الأنبياء فيها سواء ، لا فرق بين نبي ونبي ، فلا يجوز التَّفريق بينهم من هذه النَّاحية ، ولا من ناحية الإيمان بكلِّ واحد منهم ، فالإيمان بهم ركن من أركان الإيمان لا تفاوت فيه ، قال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿البقرة:٢٨٥﴾ .

فالذين ذهبوا إلى القول بتفضيل بعض النَّبيِّين على بعض لم يقصدوا التَّفاوت في درجة النبوَّة ، لأنَّهم فيها سواء ، وإنَّما عنوا بالتَّفضيل بين الأنبياء ؛ التَّفاوت بينهم من حيث الدَّرجات ، والمنازل ، والرُّتب ، على ما سيأتي بيانه مفصَّلاً في ثنايا الرِّسالة .

ونظراً لما امتاز به سيِّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خصائص ومزايا وأُعطيات ومكرُمات ، فقد أجمعت الأمَّة على أفضليَّته على جميع النَّبيِّين والمرسلين ....

وللإحاطة بأدلَّة أفضليَّته وسيادته للجميع ، فقد جاءت هذه الرِّسالة عبر مقدِّمة ، وأربعة مباحث ، وخاتمة :

المُقَدِّمَةُ : ....

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : أَدِلَّةُ القُرْآنِ العَظِيْم عَلَى أَنَّ سَيِّدنَا مُحَمَّدَاً أفضل المُرْسَلِين .

المَبْحَثُ الثَّانِي : أَدِلَّةُ السُّنَّة المُطَهَّرَة عَلَى كَوْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَل المُرْسَلِين .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ : دَلَالَةُ الإِجْمَاع وَالعَقْل عَلَى أنّ مُحَمَّدَاً أفضل المُرْسَلِين .

المَبْحَثُ الرَّابِعُ : تَأْوِيْلَاتُ العُلَمَاء لِأَحَادِيْث النَّهْي عَن المُفَاضَلَة بين الأَنْبِيَاء .

الخَاتِمَةُ : وفيها أهم نتائج البحث .

والله تعالى اسأل أن يتقبل منا ، وأن يجزي عنا سيدنا مُحَمَّدَاًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو أهله ، وَسُبْحَانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ نَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوْبُ إِلَيْكَ ، وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

دَلَالَةُ القُرآنِ العَظِيمِ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدَاً أَفْضَل المُرْسَلِيْن

أدلَّة القرآن العظيم على أنّ مُحَمَّدَاًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل المرسلين كثيرة وعديدة ، من الصَّعب جمعها وعدّها وحصرها ، لذلك أحببت الإشارة إلى أهمها وأشهرها ، من ذلك :

(١) قوله تعالى : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** ﴿البقرة:٢٥٣﴾ . والآية نصٌّ صريح على تفضيل بعض النَّبيِّين على بعض ، فهي إعلام بأنَّ بعض الرُّسل أفضل من بعض على وجه الإجمال وعدم تعيين الفاضل من المفضول ، ذلك أنّ كلّ فريق اشتركوا في صفة خير لا يخلُونَ من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بها للبعض من صفات كمال زائدة على الصِّفة المشتركة بينهم ...

وقد ثبت أنّ مُحَمَّدَاًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الرُّسل لما تظاهر من آيات تفضيله ، وتفضيل الدِّين الذي جاء به ، وتفضيل الكتاب الذي أنزل عليه . انظر: التحرير و التنوير ٢/ ٤٨٣ ، البحر المحيط ٢/ ٢٨٢ ، نظم الدرر ١/ ٤٨٣-٤٨٤ ، روح البيان ١/ ٤٨٤-٤٨٥ ، محاسن التأويل ٢/ ٥٨٢-٥٨٣ ، تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٧٠-١٠٧٣ ، حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/ ٥٧٣-٥٧٤ ، فتح القدير ص ٢٣٢ .

وقد روي عن ابن عبَّاس ، والشعبي ، ومجاهد ، أنّ المعني بقوله تعالى : **﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** إنَّما هو مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : تفسير الطَّبري ٣/ ٣ ، الدر المنثور ٢/ ٥ ، تفسير البغوي ص ١٥٦ ، تفسير ابن كثير ص ٢٦٢، تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٤ ، روح البيان ١/ ٤٨٥ ، تفسير الرازي ٦/ ١٧١ .

قال الزَّمخشري في تفسير قوله تعالى : **﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** : " أي : ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة ، والظَّاهر أنَّه أراد مُحَمَّدَاًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّه هو المفضل عليهم ، حيث أُوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية وأكثر ، ولو لم يؤت إلَّا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء ، لأنَّه المعجزة الباقية على وجه الدَّهر دون سائر المعجزات ، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشَّهادة على أنَّه العلم الذي لا يشتبه ، والمتميِّز الذي لا يلتبس ..." .

انظر: الكشاف (١/ ٣٨٢) .

فالتَّفاضل إذن باعتبار الدَّرجات وكثرة المعجزات والمكرمات ... قال الإمام الألوسي في تفسير قوله تعالى : **﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** : " أي : ومنهم من رفعه الله تعالى على غيره من الرُّسل

بمراتب متباعدة ، ومن وجوه متعدِّدة ، وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشَّرف ، والمراد ببعضهم هنا النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما ينبئ عنه الإخبار بكونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم ، فإنَّه قد خُصّ بمزايا تقف دونها الأماني حسرى ، وامتاز بخواص علميَّة وعمليَّة لا يستطيع لسان الدَّهر لها حصراً ، ورقي أعلام فضل رفعت له على كواهله الأعلام ، وطأطأت له رؤوس شرفات الشَّرف فقبلت منه الأقدام ، فهو المبعوث رحمة للعالمين ، والمنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين ، والمنزل عليه قرآن مجيد ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾﴿ فصلت:٤٢﴾ ، والمؤيَّد دينه المؤيَّد بالمعجزات المستمرَّة الباهرة ، والفائز بالمقام المحمود ، والشَّفاعة العظمى في الآخرة ، والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنَّه العلم الفرد عن التَّعيين" . انظر: روح المعاني ٢/ ٤ .

وعليه ، فإنَّ للتَّفضيل أسباب من خلالها يتفاضلون لا يعلمها جميعاً إلَّا الله تعالى ، قال الطَّاهر بن عاشور: " وَأَسْبَابُ التَّفْضِيلِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى مَا جَرَى عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمُصْلِحَةِ لِلْبَشَرِ وَمِنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَمَا لَقُوهُ مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَمَا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْعَظِيمَةِ الْمُتَفَاوِتَةِ فِي هُدَى الْبَشَرِ، وَفِي عُمُومِ ذَلِكَ الْهُدَى وَدَوَامِهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». أخرجه الطبراني في الكبير ١/ ٤٠٣ برقم ٩٣٠ ، الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٩١ برقم ٦٥٣٧ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٥/ ٤٣٠ برقم ٩٧١٥ – من طريقين – وقال : رواه الطبراني عن يزيد بن أبي زياد مولى ابن عبَّاس ، ذكره المزي في الرواة عن أبي رافع ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وبقية رجال الطريق الأولى ثقات .

فَمَا بَالُكَ بِمَنْ هَدَى اللهُ بِهِمْ أُمَمًا فِي أَزْمَانٍ مُتَعَاقِبَةٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الرُّسُلِ" . انظر: التحرير والتنوير ٢/ ٤٨٢ ، وانظر أيضاً : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٤٤٢ ، حاشية الجمل على الجلالين ١/ ١٥٧ ، البحر المحيط ٨/ ٢٨٣ .

(٢) وقوله تعالى :﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّين عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾﴿ الإسراء:٥٥﴾ .

والآية كسابقتها دليل واضح بيِّن على تفضيل بعض النَّبيِّين على بعض ....

وقد استدلَّ الإمام الزَّمخشري بهذه الآية على أفضليَّته عليه الصَّلاة والسَّلام على سائر النَّبيِّين ، فقال : " وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّين عَلى بَعْضٍ﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقوله : ﴿وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنَّه خاتم الأنبياء ، وأنّ أُمته خير

الأمم ، لأنَّ ذلك مكتوب في زبور داود ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾﴿الأنبياء:١٠٥﴾ ، وهم مُحَمَّد وأمته " . انظر: الكشاف ٢/ ٤٥٣ .

وفي تفسيره لقول الله تعالى : ﴿وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ قال الإمام البروسوي : " إشارة إلى أنَّ فضل النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على داود بقدر فضل القرآن على الزَّبور .

وقد نعت نبيّنا عليه السَّلام وأُمّته المرحومة في جميع الكتب المتقدِّمة ، وفضّله الله بكثرة الأتباع أيضاً ، كما قال النَّبي عليه السَّلام : أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِئَةُ صَفٍّ ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ " . انظر: روح البيان ٥/ ٢٠٥ ، والحديث أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٢٧ ، الطبراني في الكبير ٩/ ١٢ ، الحاكم في المستدرك ١/ ١٥٥ برقم ٥/ ٣٦٨ برقم ١٩٩٩ ، ابن حبّان في الصحيح ١٦/ ٤٩٩ برقم ٧٤٦٠ ، الدارمي ٢/ ٢٦٦ برقم ٢٨٣٥ ، الترمذي ص ٤١٣ برقم ٤١٣٦ برقم ٢٥٤٦ ، وقال هذا حديث حسن ، ابن ماجه ص ٤٦٢ برقم ٤٢٨٩ ، الطبراني في الأوسط ١/ ٤٣٧ برقم ١٦٠٤ .

فتفضيل بعضهم على بعض منوط بما منحوا من الفضائل النَّفسيَّة ، والصِّفات العليَّة ، والمزايا القدسيَّة ، والأسرار الرَّبَّانيَّة ، وإنزال الكتب السَّماويَّة ، وبما أُعطوه لإثبات دعوتهم من الدَّلائل ، والوسائل ، والشَّمائل ، وقد أشار ابن عبَّاس رضي الله عنهما إلى هذا فقال : إنَّ الله فضَّل مُحَمَّداًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأنبياء ، وعلى أهل السَّماء ، فقالوا : بِمَ يا ابن عبَّاس فضَّله على أهل السَّماء ؟ فقال : إنّ الله تعالى قال : ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾﴿الأنبياء:٢٩﴾ ، وقال لسيِّدنا محمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾﴿الفتح:١﴾ . قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : قال الله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾﴿إبراهيم:٤﴾ . وقال عزَّ وجلَّ لمحمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾﴿سبأ:٢٨﴾ فأرسله إلى الجنِّ والإنس . أخرجه الدارمي ١/ ٢٣ برقم ٤٦ ، الطبراني في الكبير برقم ١١٦١٠ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٢٥ برقم ١٣٩٢٧ ، وقال: رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان ، وهو ثقة ، ورواه أبو يعلى باختصار كثير .

(٣) وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾﴿الشرح:٤﴾ . والآية تبيّن عظيم فضل الله على سيِّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قرن الله تعالى اسمه مع اسمه سبحانه وتعالى في كلمتي الشَّهادة ، والأذان ، والإقامة ، والتَّشهُّد ... فلا يُذكر الله تعالى إلَّا ذكر معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال الإمام القرطبي في معنى الآية : " وَقِيلَ: أَيْ أَعْلَيْنَا ذِكْرَكَ، فَذَكَرْنَاكَ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَأَمَرْنَاهُمْ بِالْبِشَارَةِ بِكَ، وَلَا دِينَ إِلَّا وَدِينُكَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: رَفَعْنَا ذِكْرَكَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ،

وَفِي الْأَرْضِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَرْفَعُ فِي الْآخِرَةِ ذِكْرَكَ بِمَا نُعْطِيكَ مِنَ المقام المحمود، وكرائم الدرجات". انظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ١٠٧ .

" وقيل : رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النَّبيِّين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله" . انظر: تفسير الخطيب الشربيني ٤/ ٦٤١ .

" وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرَّد به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر العالمين .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ ، حيث قدر الله أن تمرّ القرون وتكرّ الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصَّلاة والتَّسليم ، والحبّ العظيم العميق .

ورفعنا لك ذكرك ، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع ، وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل في هذا الوجود " . انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٠ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي» " . أخرجه الطَّبري في التفسير ٣٠/ ٢٩٧ برقم ٢٩٠٦٨ ، السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٥٠٤ ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في الدلائل ، وأبي يعلى وابن حبّان ، أبو يعلى في المسند ٣/ ٣٩٣ برقم ١٣٤٩ ، ابن حبّان ٨/ ١٧٥ برقم ٣٣٨٢ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٢٤ برقم ١٣٩٢ ، قال : رواه أبو يعلى ، وإسناده حسن .

وبسبب قرن الله تعالى لاسم الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع اسمه في الشَّهادتين ، فإنَّه لا يذكر الله ذاكر إلَّا ويثني بذكر الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومن المعلوم أنَّ من أشهر الشَّعائر التي اقترن بها اسم الرَّسول مع اسم الله تعالى بعد الشَّهادتين : الأذان ...

كما أنَّ الله تعالى قرن اسمه مع مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العديد من آيات القرآن ، من ذلك :

قوله تعالى :﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ**﴾﴿النساء:٨٠﴾ ، وقد جاء في الأثر أنَّ سيّدنا عمر رضي الله عنه قال للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالى : ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ**﴾﴿النساء :٨٠﴾ . ففوض إليك ، فلم تأمر إلَّا بخير ورشد ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أنّ أهل النَّار يودُّون لو يكونون أطاعوك ، وهم بين أطباقها ، يعذبون يقولون : ﴿**يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا**﴾﴿الأحزاب:٦٦﴾ . انظر : نهاية السول في خصائص الرسول ص ٣٠ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾﴿النساء:١٤﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ﴿المنافقون:٨﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ﴿المائدة:٥٥﴾ .

وقوله تعالى : ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾﴿الأنفال:٢٤﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾﴿التوبة:٦٢﴾ .

وفي دراسة لأحد البحَّاثه بدولة الإمارات العربيَّة المتَّحدة ، توصَّل إلى أنَّ الأذان لا ينقطع عن الكرة الأرضيَّة طيلة اليوم والليلة ، فهو مستمرٌّ على مدار أربع وعشرين ساعة ، فما أن ينتهي في منطقة حتَّى ينطلق في أخرى ، وشرح الباحث عبد الحميد الفاضل فكرته بتوضيحه أنَّ الكرة الأرضيَّة تنقسم إلى (٣٦٠) خطاً تحدّد الزَّمن في كلِّ منطقة منها ، يفصل كلّ خطٍّ عن الخطِّ الذي يليه (٤) دقائق بالضَّبط ، والأصل في الأذان أن ينطلق في موعده المحدَّد ، ويفترض أن يؤدِّيه المؤذِّن أداءً حسناً يستمرُّ أربعة دقائق من الزَّمن ، فإذا افترضنا أنَّ الأذان انطلق الآن في المنطقة الواقعة عند خطِّ الطُّول (١) ، واستمرَّ أربعة دقائق ، فإنَّه سينطلق في المنطقة الواقعة عند الخطِّ (٢) ، وعندما ينتهي سينطلق في الخطِّ الثَّالث ثم الرَّابع ، وهكذا لا ينقطع الأذان طول اليوم ، وبالتَّالي فإنَّ اسم مُحَمَّدصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتردَّد في كلِّ ثانية من ثواني أيامنا .

ويمكن التَّأكُّد بعمليَّة حسابيَّة صغيرة ، كالآتي :

٤ (دقائق) × ٣٦٠ (يوم) = ١٤٤٠ (دقيقة) .

١٤٤٠ (دقيقة) ÷ ٦٠ (دقيقة) = ٢٤ (ساعة) . اقتبست من شبكة الإنترنت .

فسبحان الله العظيم ...

(٤) أنَّ الله تعالى في خطابه وندائه للأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كان يناديهم بأسمائهم ، قال تعالى : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾﴿البقرة:٣٥﴾ ، وقال : ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ ﴿هود:٤٨﴾ ، وقال : ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ﴿الصافات:١٠٤-١٠٥﴾ ، وقال :﴿يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ ﴿طه:١١-١٢﴾ ، وقال :﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾﴿مريم:٧﴾ ، وقال : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾﴿مريم:١٢﴾ ، وقال : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿المائدة:١١٦﴾ ، وهكذا ...

أمَّا عند ندائه لسيِّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنَّه لم يناده إلَّا بأحبّ الأسماء وأسنى الأوصاف ، كقوله : ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾﴿المائدة:٤١﴾ ، وقوله : "﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿المائدة:٦٧﴾ ، وقوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾﴿الأحزاب:٥٩﴾ ، وهذا منه تعالى توقير وإجلال للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو دليل على أفضليته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر الأنبياء والمرسلين .

ومن المعلوم أنَّ من دُعي بأوصافه العليَّة ، وأخلاقه السَّنيَّة ، أفضل وأعزّ وأكرم ممَّن دُعي باسمه العلم الذي لا يشعر بوصف من الأوصاف ، ولا بخلق من الأخلاق . انظر: بداية السول ص ١٨ .

(٥) أنَّ الله تعالى أقسم بحياة نبينا مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال :﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾﴿الحجر:٧٢﴾ ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع ، وجاه عريض لم يتأتى لغيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النَّبيِّين . قال ابن عبَّاس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره . أخرجه الطَّبري في التفسير ١٤/ ٥٨ برقم ١٦٠٤٨ ، ابن كثير في التفسير ص ٩٥٣ .

" وذلك يدلّ على أنه أكرم الخلق على الله تعالى" . انظر: تفسير الرازي ١٩/ ١٦١ .

قال القاضي عياض : " قال تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾﴿الحجر:٧٢﴾ . اتفق أهل التَّفسير في هذا أنَّه قسم من الله جلّ جلاله بمدَّة حياة مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... ومعناه : وبقائك يا مُحَمَّد ، وقيل : وعيشك ، وقيل : وحياتك . وهذه نهاية التَّعظيم وغاية البرّ والتَّشريف ... قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّه أكرم البريَّة عنده " . انظر: الشفا ١/ ٨٦-٨٧ ، وانظر : فتح القدير ص ٩٣٢ ، لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٩٥ .

فإقسام الله تعالى بحياة مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر النَّبيِّين دليل على شرفه ومكانته وفضله .... ، وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿يس:١-٢﴾ ، وقد روى البيهقي بسنده عن ابن عمر عن مُحَمَّد بن الحنفيَّة ، قال :" يس " مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٣٢ برقم ٦١ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٨ ، وقال : أخرجه ابن مردويه ، وابن أبي المنذر ، والبيهقي في الدلائل .

وروى البيهقي - أيضاً - ، عن أبي زكريَّا يحيى بن مُحَمَّد العنبري قال : لنبيِّنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسة أسماء في القرآن : مُحَمَّد ، وأحمد ، وعبد الله ، وطه ، وياسين ، ...قال تعالى : ﴿يَس﴾

يعني يا إنسان ، والإنسان ها هنا العاقل وهو مُحَمَّد . أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٣٣ برقم ٦٣ ، وذكره القرطبي في التفسير ١٥/ ٥ ، والقاضي عياض في الشفا ١/ ٨٨ .

(٦) أنَّ الله تعالى أمر نبيَّنا مُحَمَّداًصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإقتداء بالهدي الذي كان عليه أنبياؤه ورسله ، إذ أنَّه سبحانه بعد أن قال عن أنبيائه ورسله : ﴿وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾﴿الأنعام:٨٧﴾ ، قال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾﴿الأنعام:٨٩﴾ ، ولذلك أمر النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاهتداء بما كانوا عليه من الهدى ، قال تعالى :﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ﴿الأنعام:٩٠﴾ ، وفي ذلك دلالة على كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلهم ...

قال الإمام الخازن : " احتجَّ العلماء بهذه الآية على أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، بيانه : أنَّ جميع خصال الكمال وصفات الشَّرف كانت متفرِّقة فيهم ، فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه ، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله عزَّ وجلَّ ، وكان إسحق ويعقوب من أصحاب الصَّبر على البلاء والمحن ... ثمَّ إنَّ الله تعالى أمر نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتدي بهم ، وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرِّقة فيهم ، فثبت بهذا البيان أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرَّقة في جميعهم" . انظر : تفسير الخازن ١/ ٤٠٩ .

وقال الإمام ابن عاشور في تفسيره للآية : " وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ تَفْرِيعٌ عَلَى كَمَالِ ذَلِكَ الْهُدَى، وَتَخَلُّصٌ إِلَى ذِكْرِ حظّ محمدّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هُدَى اللهَّ بَعْدَ أَنْ قدّم قبله مسهب ذِكْرُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَدْيِهِمْ إِشَارَةً إِلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنّها منزلَة جَدِيدَة بِالتَّخْصِيصِ بِالذِّكْرِ حَيْثُ لَمْ يَذْكُرُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَنَّهُ جَمَعَ هُدَى الْأَوَّلِينَ، وَأُكْمِلَتْ لَهُ الْفَضَائِلُ، وَجَمَعَ لَهُ مَا تَفَرَّقَ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْمَزَايَا الْعَظِيمَةِ. وَفِي إِفْرَادِهِ بِالذِّكْرِ وَتَرْكِ عَدِّهِ مَعَ الْأَوَّلِينَ رَمْزٌ بَدِيعٌ إِلَى فَذَاذَتِهِ وَتَفَرُّدِ مِقْدَارِهِ، وَرَعْيٌ بَدِيعٌ لِحَالِ مَجِيءِ رِسَالَتِهِ بَعْدَ مُرُورِ تِلْكَ الْعُصُورِ الْمُتَبَاعِدَةِ أَوِ الْمُتَجَاوِرَةِ، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الْمَجْرُور وَهُوَ فَبِهُداهُمُ عَلَى عَامِلِهِ، لِلِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْهُدَى لِأَنَّهُ هُوَ مَنْزِلَتُكَ الْجَامِعَةُ لِلْفَضَائِلِ وَالْمَزَايَا، فَلَا يَلِيقُ بِهِ الِاقْتِدَاءُ بِهُدًى هُوَ دُونَ هُدَاهُمْ ...

وَأمر النّبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِاقْتِدَاءِ بِهُدَاهُمْ يُؤْذِنُ بِأَنَّ اللهَّ زَوَى إِلَيْهِ كلّ فَضِيلَةً مِنْ فَضَائِلِهِمُ الَّتِي اخْتَصَّ كُلَّ وَاحِدٍ بِهَا سَوَاءٌ مَا اتَّفَقَ مِنْهُ وَاتَّحَدَ، أَوِ اخْتَلَفَ وَافْتَرَقَ، فَإِنَّمَا يُقْتَدَى بِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ

عَلَيْهِ مِنْ فَضَائِلِ الرُّسُلِ وَسِيَرِهِمْ، وَهُوَ الْخُلُقُ الْمَوْصُوفُ بِالْعَظِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**﴿الْقَلَم: ٤﴾ . انظر: التحرير والتنوير٦ / ٢٠٥-٢٠٦ .

وقد قام عليه الصَّلاة والسَّلام بما أمر به ، فجمع ما كان عليه جميع الأنبياء من محاسن الأخلاق وأجودها ، فوجب لذلك أن يكون أفضلهم .

وقال الإمام الرَّازي :" احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ رَسُولَنَا صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَقْرِيرُهُ: هُوَ أَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ خِصَالَ الْكَمَالِ، وَصِفَاتَ الشَّرَفِ كَانَتْ مُفَرَّقَةً فِيهِمْ بِأَجْمَعِهِمْ، فَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ كَانَا مِنْ أَصْحَابِ الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ، وَأَيُّوبُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَيُوسُفُ كَانَ مُسْتَجْمِعًا لِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ.

وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ صَاحِبَ الشَّرِيعَةِ الْقَوِيَّةِ الْقَاهِرَةِ وَالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى، وَعِيسَى، وَإِلْيَاسُ، كَانُوا أَصْحَابَ الزُّهْدِ، وَإِسْمَاعِيلُ كَانَ صَاحِبَ الصِّدْقِ، وَيُونُسُ صَاحِبُ التَّضَرُّعِ، فَثَبَتَ إِنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ كَانَ خَصْلَةً مُعَيَّنَةً مِنْ خِصَالِ الْمَدْحِ وَالشَّرَفِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْكُلَّ أَمَرَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ بِأَسْرِهِمْ، فكَانَ التَّقْدِيرُ كَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ مُحَمَّدًا صلّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ أَنْ يَجْمَعَ مِنْ خِصَالِ الْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ كُلَّ الصِّفَاتِ الَّتِي كَانَتْ مُفَرَّقَةً فِيهِمْ بِأَجْمَعِهِمْ وَلَمَّا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، امْتَنَعَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ قَصَّرَ فِي تَحْصِيلِهَا، فَثَبَتَ أَنَّهُ حَصَّلَهَا، وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، ثَبَتَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ مَا كَانَ مُتَفَرِّقًا فِيهِمْ بِأَسْرِهِمْ، وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَجَبَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ بِكُلِّيَّتِهِمْ " .

انظر: تفسير الرازي ١٣/ ٥٨ .

(٧) أنَّ الله تعالى أخذ العهد على جميع الأنبياء والمرسلين بالإيمان به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتِّباعه ونصرته إذا بُعث وهم أحياء ، قال تعالى : **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾**﴿آل عمران:٨١﴾ .

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قوله : لَمْ يَبْعَثِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا، آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ، إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ فِي مُحَمَّدٍ: لَئِنْ بُعِثَ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فَيَأْخُذُ الْعَهْدَ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ﴾** ... الآية . أخرجه الطَّبري في التفسير ٣/ ٤٥٠ برقم ٥٧٩٠ ، السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٤٠ ، ونسبه لابن جرير ، ابن كثير في التفسير ص ٣٢١ .

وفي هذا بيان لرفعته ومكانته وعظيم قدره وأفضليَّته على سائر النَّبيِّين ...

(٨) أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى الناس كافة ، قال تعالى مبيناً عموم دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾**﴿سبأ:٢٨﴾ . فالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرَّسول الوحيد الذي أُرسل لعموم الإنس والجن . والأدلَّة على إرساله للجنِّ عديدة منها هذه الآية . " قال أبو الوفا بن عقيل : الجنُّ داخلون في مُسمَّى النَّاس لغة . وقال الجوهري : النَّاس قد يكون من الإنس والجنّ . وقال الرَّاغب : النَّاس جماعة حيوان ذوي فكر ورويَّة ، والجنُّ لهم فكر ورويَّة ، والنَّاس من ناس ينوس إذا تحرَّك " . انظر: قرة العين ص ١٣ ، وانظر: لسان العرب ٣/ ٧٤١ ، مادة : نوس ، تهذيب اللغة ١٣/ ٦٢ .

ووجه الدّلالة من الآية على أفضليَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر النَّبيِّين هو أنَّه كلَّما كانت دائرة مسؤوليَّته كبيرة ، كانت المشقَّة أكبر ، وكبر المشقَّة سبب لكثرة الأجر ، لأنَّ الأجر على قدْر المشقَّة .

قال الإمام ابن تيمية : ".... الرَّسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى والنَّصر والقهر ..." . انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣١٥ .

(٩) التَّفضيل بكثرة المعجزات : فمن المعلوم أنَّ أعظم الرُّسل معجزات وأكثرها هو سيِّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد قيل : إنَّها تبلغ ألفاً ، قاله البيهقي ، وقيل : ألفاً ومائتين ، قاله النَّووي . وقيل : ثلاثة آلاف سوى القرآن ، حكاهما البيهقي . وذكر بعض العلماء أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصة . انظر : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١١/ ٥٢ ، شرح الزرقاني ٥/ ٢٠٦ فما بعدها ، حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ص ١٤ فما بعدها .

(١٠) التَّفضيل بخيريَّة الأمة ، وكثرة الأتباع ، قال تعالى عن أمَّة سيدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**﴿ آل عمران :١١٠﴾ ، ووجه الدّلالة من هذه الآية على أفضليَّة سيّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر الأنبياء والمرسلين : أنَّ الآية دلت دلالة واضحة بيِّنه على أنَّ أمَّة سيّدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي خير الأمم ، وما نالت الأمَّة هذا الشَّرف الرَّفيع إلَّا بسبب متابعتهم له عليه الصَّلاة والسَّلام ، قال الإمام التَّفتازاني :" وتفضيل الأمَّة من حيث إنَّها أمَّة ، تفضيل للرَّسول الذي هم أمَّته " . انظر: شرح المقاصد ٥/ ٤٧ .

وقال صاحب الجواهر :" ... لا شكَّ أنَّ الخيريَّة للأمَّة إنَّما هي بحسب كمالهم في الدِّين ، وذلك تابع لكمال نبيّهم الذي يتبعونه ، أي : فلولا أنَّه خير الأنبياء لم تكن أمَّته خير الأمم ، وقد ثبت بنصِّ الآية

أنّهم خير الأمم ، فيكون نبيّهم خير الأنبياء لما علمت ما بينهما من الملازمة الظّاهرة " . انظر: جواهر البحار في فضائل النبي المختار ٢/ ١٣٠ .

ومن خيريَّة هذه الأمَّة : كثرة الأتباع ، فقد روى الشَّيخان من حديث ابن عبَّاس مرفوعاً : " عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» . أخرجه البخاري ص ١٢٥٣ برقم ٦٥٤١ ، كتاب الرقاق ، باب : يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، مسلم ص ١١٦ برقم ٢٢٠ ، كتاب الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب .

وفي شرحه لحديث :"... وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» " . أخرجه البخاري ص ٣٩ برقم ٧١ ، كتاب العلم ، باب : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين .

قال ابن أبي جمره :" وفي هذا دليل على أفضليَّة هذه الأمَّة على غيرها من الأمم ، إذ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أبقاها على دينها إلى قيام السَّاعة من غير أن يدخل عليها في ذلك خلل ، ولا تتعبَّد لغير ما شرع لها ، وغيرها من الأمم ليس كذلك ، لأنَّه لم تأت أمَّة قطّ حتى تنقرض الأخرى ، وفي هذا دليل على شرف النَّبي ، إذ إنَّه بسببه حصلت لها هذه السَّعادة العظمى" . انظر: عون المريد ٢/ ٧٧٨ نقلاً عن بهجة النفوس لابن أبي جمره ١/ ١١٨ .

ومن الآيات الدالَّة على خيريَّة هذه الأمَّة وأفضليتها على جميع الأمم ، قوله تعالى : **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**﴿البقرة:١٤٣﴾ ، " أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم ، والوسط العدل ، وأصل هذا أنَّ أحمد الأشياء أوسطها ، وروى التِّرمذي عن أبي سعيد عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله :**﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾** ، قال : عدلاً . انظر: تفسير القرطبي ٢/ ١٥٣ ، وانظر : تفسير الطبراني ١/ ٢٥٨-٢٥٩ ، روح المعاني ١/ ٤٠٤ ، روح البيان ١/ ٣١٠-٣١١ ، والحديث أخرجه الترمذي ص برقم ٢٩٦١ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة البقرة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ولأنّ هذه الأمة أمة عدل وخيرية ستشهد للنبيين بالتبليغ يوم الدِّين ، فقد روى البخاري بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بلَّغت؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ" قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** . قَالَ: الْوَسَطُ : الْعَدْلُ " . أخرجه البخاري ص ٨٤٩ برقم ٤٤٨٧ ، كتاب التفسير ، باب قول الله تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً " .

وجاء في رواية أحمد :"... فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا، فَأَخْبَرَنَا: أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ": **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** ﴿البقرة: ١٤٣﴾ قَالَ: " يَقُولُ: عَدْلًا "، **﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** ﴿البقرة: ١٤٣﴾ " . أخرجه أحمد ص ٧٩٣ برقم ١١٥٧٩ .

(١١) أنَّ الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه الجدال والدفاع عنه ،صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بينما غيره من الأنبياء والمرسلين كانوا يجادلون عن أنفسهم وينافحون .

فها هم قوم نوح عليه السَّلام يقولون له : **﴿إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**﴿الأعراف:٦٠﴾ فأجابهم بنفسه ، فقال : **﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهَّ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾**﴿الأعراف:٦١-٦٢﴾ ، وها هم قوم هود عليه السَّلام يقولون له : **﴿إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾**﴿الأعراف:٦٥﴾ . فأجابهم قائلاً : **﴿قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾**﴿الأعراف:٦٦﴾ ، وها هو فرعون يقول لموسى عليه السَّلام : **﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسى مَسْحُوراً﴾** ﴿الإسراء:١٠١﴾ فأجابه موسى بقوله : **﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾**﴿الإسراء:١٠٢﴾ .

وأمَّا نبيّنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد تولَّى الله بنفسه الدِّفاع والمجادلة عنه ، فلمَّا قالوا عنه : **﴿بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾** ﴿الأنبياء:٥﴾ ، ردَّ الله تعالى عليهم فقال : **﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾**﴿يس:٦٩﴾ ، وقال أيضاً : **﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ﴾**﴿الحاقة:٤١﴾ ، ولمَّا اتَّهموه بالكهانة ، أجاب الله تعالى عنه ، فقال : **﴿وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾**﴿الحاقة:٤٢﴾ ، وعندما اتَّهموه بالضَّلال والغواية ، أجاب الله تعالى عنه ، فقال : **﴿مَا ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾**﴿النجم:٢﴾ ، ولمَّا اتَّهموه بالجنون ، كما في قوله تعالى : **﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾**﴿القلم:٥١﴾ ، أجاب الله تعالى عنه ، فقال : **﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾**﴿القلم:٢﴾ .

وهذا كلُّه بيان وبرهان وأيّ برهان على فضله على سائر المرسلين ، ودلالة واضحة ناطقة على علوِّ مكانته وعظيم قدره ورفيع درجته التي لم يصل إليها غيره من الأنبياء والمرسلين...

(١٢) التَّفضيل بإنزال الشَّرائع ، كما قال الله تعالى عن سيدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجهاً أنظار أهل الكتاب إلى صفته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي لم تزل موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم : **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾**﴿الأعراف:١٥٧﴾ . فمن أوتي من الأنبياء شريعة تامَّة كاملة ، صالحة لكلّ زمان ومكان أفضل من غيره من الأنبياء .

(١٣) ومن عظيم قدره ، وعلو شأنه ومكانته : أنَّ الله تعالى أمرنا وطالبنا بتقديره وتبجيله وتعزيره ، بحيث لا يُنادى باسمه ، بل يُنادى بأحبّ صفاته ومحامده ، نحو : يا رسول الله ، يا نبي الله ، قال تعالى : **﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾**﴿النور:٦٣﴾ .

روى ابن كثير وغيره عن ابن عبَّاس ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير في معنى الآية : كانوا يقولون : يا مُحَمَّد ، يا أبا القاسم . فنهاهم الله عزَّ وجلَّ عن ذلك ، إعظاماً لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه ، قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وقال قتاده : أمر الله أن يُهاب نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأن يُبجّل ، وأن يُعظم ، وأن يسوّد . وقال مقاتل في معنى الآية : لَا تُسَمّوه إِذَا دَعَوتموه: يَا مُحَمَّدُ، وَلَا تَقُولُوا: يَا بْنَ عَبْدِ اللهِّ، وَلَكِنْ شَرّفوه فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ اللهِّ، يَا رَسُولَ اللهِّ. انظر : تفسير ابن كثير ص ١٢٢٩ ، الدر المنثور ٦/ ٢١١ ، تفسير القرطبي ١٢/ ٣٢٢ ، روح البيان ٦/ ٢٤٠- ٢٤١ .

أمَّا أتباع الأنبياء السَّابقين ، فإنَّهم كانوا ينادون أنبيائهم بأسمائهم المجرَّدة من غير إضافة ، وقد دلَّت على ذلك آيات عديدة ، من ذلك :

قوله تعالى على لسان قوم نوح : **﴿قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا﴾**﴿هود:٣٢﴾ .

وقوله تعالى على لسان قوم صالح :**﴿وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** ﴿الأعراف:٧٧﴾ .

وقوله تعالى على لسان قوم موسى : **﴿قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ﴾**﴿المائدة:٢٢﴾ .

وقوله تعالى على لسان قوم شعيب : **﴿قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾** ﴿هود:٨٧﴾ .

وقوله تعالى على لسان قوم لوط : **﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾** ﴿الشعراء:١٦٧﴾ .

" ولا يخفى على أحدٍ أنَّ السيِّد إذا دعا أحد عبيدِه بأفضل ما وُجِد فيه من الأوصاف العليَّة ، والأخلاق السَّنيَّة ، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تُشعر بوصفٍ من الأوصاف ، ولا بخُلق من الأخلاق ، أنَّ منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعزّ عليه ، وأقرب إليه ممَّن دعاه باسمه العلم . وهذا معلوم بالعُرف ؛ فإنَّ من دُعي بأفضل أسمائه وأخلاقه كان ذلك مبالغةً في تعظيمه واحترامه" . انظر : بداية السول ص ١٨-١٩ .

وبعد ، فهذه بعض الدّلالات القرآنيَّة التي تشير إلى عظيم قدر النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى كونه سيِّد الأنبياء والمرسلين ...

المَبْحَثُ الثَّانِي

أَدِلَّةُ السُّنَّة المُطَهَّرَة عَلَى كَوْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَل المُرْسَلِين

أدلَّة السُّنَّة المطهَّرة على كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل المرسلين كثيرة ، منها :

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» . أخرجه مسلم (٤/ ١٧٨٢ برقم ٢٢٧٨) .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيد الناس يوم القيامة ". أخرجه البخاري ص ٦٣٧ برقم ٣٣٤٠ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، مسلم ص ١٩٤ ، كتاب الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها

والسيِّد هو الذي فاق قومه ، وقام بأمرهم ، وتحمَّل مكارههم ، ولا يكون كذلك إلَّا إذا اتَّصف بالصِّفات العليَّة ، والأخلاق السَّنيَّة ، قال الإمام النَّووي :" قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ... قَالَ الْهَرَوِيُّ السَّيِّدُ هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمَهُ فِي الْخَيْرِ وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِبِ وَالشَّدَائِدِ فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِهَهُمْ وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَنَّهُ سَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُ التَّقْيِيدِ أَنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَظْهَرُ سؤدده لكل أحد ولا يبقى مناع وَلَا مُعَانِدٌ وَنَحْوُهُ بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّارِ وَزُعَمَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَهَذَا التَّقْيِيدُ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهَّ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ مَعَ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ سُبْحَانَهُ قَبْلَ ذَلِكَ لَكِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَدَّعِي الْمُلْكَ أَوْ مَنْ يُضَافُ إِلَيْهِ مَجَازًا فَانْقَطَعَ كُلُّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ قَالَ الْعُلَمَاءُ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْرِ فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا امْتِثَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى وَأَمَّا بِنِعْمَةِ ربك فحدث وَالثَّانِي أَنَّهُ مِنَ الْبَيَانِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ إِلَى أُمَّتِهِ لِيَعْرِفُوهُ وَيَعْتَقِدُوهُ وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ وَيُوَقِّرُوهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ لِتَفْضِيلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ " . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٧ ، وانظر: جواهر البحار ٢/ ٦٤ .

وسيادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنَّاس يوم القيامة ستكون واضحة جليَّة بما سيعطاه يوم القيامة من الشَّرف العظيم والمكانة الرَّفيعة التي عبَّرت عنها عشرات الأحاديث الصَّحيحة التي أبانت عن مجموعة كبيرة من فضائله ، وخصائصه وميزاته ، من ذلك :

(أ) أنَّه أوَّل شافع وأوَّل مشفَّع ، روى مسلم بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا» . أخرجه مسلم (١/ ١٨٨ برقم ١٩٦) .

(ب) أنَّه صاحب المقام المحمود ، قال تعالى : **﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾** ﴿الإسراء:٧٩﴾ . والمقام المحمود هو الشَّفاعة العظمى التي ليست إلَّا له ، دون غيره من الأنبياء والمرسلين . فقد روى البخاري بسنده عن ابن عمر قال :" إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ ". أخرجه البخاري (٦/ ٨٦ برقم ٤٧١٨) .

(ج) أنَّ الله تعالى خصه بالكوثر دون سائر النَّبيِّين . فَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾**﴿الكوثر: ٢﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ " زَادَ ابْنُ حُجْرٍ، فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ. وَقَالَ: «مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ» . أخرجه مسلم (١/ ٣٠٠ برقم ٤٠٠) .

والكوثر خاص بالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم ينقل أنَّ لغيره من الأنبياء مثله ، قال الحافظ ابن حجر : " المختصّ بنبينا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكوثر الذي يصبّ من مائه في حوضه ، فإنَّه لم ينقل نظيره لغيره ، ووقع الامتنان عليه به في السُّورة المذكورة " . انظر: فتح الباري ١١/ ٤٦٧ .

(د) أنّ الخلائق يرغبون إليه يوم القيامة كي يشفع لهم ، كما جاء في حديث الشفاعة .....

(هـ) أنه أول يجوز الصراط بأمته ، كما جاء في الحديث : " وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ " . أخرجه البخاري ص ١٤١٦ برقم ٧٤٣٧ ، كتاب التوحيد ، باب : قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، مسلم ص ١٠٠ برقم ١٨٢ ، كتاب الإيمان ، باب : معرفة طريق الرؤية ، واللفظ له.

(و) أنَّ أمته يدخلون الجنة قبل جميع الخلائق إكراماً له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال عليه الصَّلاة والسَّلام :" نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ..." . أخرجه مسلم ص ٣٣١ برقم ٨٥٥، كتاب الجمعة ، باب : هداية هذه الأمة ليوم الجمعة .

(ز) أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صاحب لواء الحمد يوم القيامة ، وهو لواء حقيقي اختصّ عليه الصَّلاة والسَّلام بحمله دون سائر الأنبياء والمرسلين ، خصّه الله تعالى به لحمده الله تعالى بمحامد لم يحمده بها غيره . وقد دلَّت السُّنَّة على اختصاصه بهذه الخصيصة ، فقد روى التِّرمذي وغيره بسندهم إلى أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ " . أخرجه الترمذي ص ٥٦٨ برقم ٣٦١٥ ، كتاب المناقب ، باب : في فضل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، أحمد في المسند ص ٧٥٠ برقم ١١٠٠٠ .

(ح) أنَّه أوَّل من يقرع باب الجنَّة ، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ» . أخرجه مسلم ص ١١١ برقم ١٩٦ ، كتاب الإيمان ، باب : في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٤١ ، أبو عوانة في المستخرج ١/ ٢٧١ ، البغوي في شرح السنة ٧/ ٤٤٧ ، أبو يعلى في المسند ٧/ ٤٦ .

(ط) أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صاحب الوسيلة ، وهي درجة عالية في الجنَّة ، لا تنبغي إلَّا لعبد واحد . فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» . أخرجه مسلم ص ١٦٥ برقم ٣٨٤ ، كتاب الصلاة ، باب : استحباب القول مثل ما يقول المؤذن .

وغير هذه كثير من الخصائص التي خصَّ الله بها النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون غيره من الأنبياء ، وما خصّ بها إلَّا لشرفه ومكانته وفضله على من سواه ...

وقد استشكل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أَنَا سيِّد وَلَد آدَم وَلَا فَخْر "على البعض ، ففهم منه عدم تفضيله على آدم ، وإنَّما تفضيله على أولاده . انظر : شرح العقائد النسفية ص ١٦٦ .

والحق أنَّه استنتاج مردود بالآتي :

أَوَّلاً : قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ" .

أخرجه أحمد ص ٢٢٦ برقم ٢٦٩٢ ، الترمذي ص ٥٦٨ برقم ٣٦١٥ ، كتاب المناقب ، باب : في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، واللفظ

له ، ابن ماجه ص ٤٦٤ برقم ٤٣٠٨ ، كتاب الزهد ، باب : ذكر الشفاعة ، الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٤٥٠ برقم ٥٧١٠ ، البيهقي في الدلائل ٦/ ١٠٦ برقم ٢٢٣١ ، أبو يعلى في المسند ١٥/ ٣٠٣ برقم ٧٣٢٧ ، الطيالسي برقم ٢٨٢٦ ، الدارمي ١/ ٢٣ برقم ٤٧ .

والحديث نصٌّ صريح على علوّ قدره ومرتبته وفضله على سائر النَّبيِّين ، آدم وغيره . قال ابن الجوزي في معنى قوله (ولا فخر) : " قال ابن الأنباري : المعنى : لا أتبجَّح بهذه الأوصاف ، وإنَّما أقولها شكراً لربِّي ، ومنبِّهاً أمَّتي على إنعامه عليَّ . وقال ابن عقيل : إنَّما نفي الفخر الذي هو الكبر الواقع في النَّفس المنهي عنه الذي قيل فيه : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**﴿لقمان:١٨﴾ ولم ينف فخر التَّجمل بما ذكره من النّعم التي بمثلها يفتخر ، ومثله قوله : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾**﴿القصص:٧٦﴾ يعني : الأشرين ، ولم يرد الفرح بنعمة الله تعالى " . انظر: صفة الصفوة ١/ ١٨٣ .

وقال الباجوري في شرح قوله عليه السَّلام في الحديث : "ولَا فَخْر " : أي : ولا فخر أعظم من ذلك " . انظر: شرح الجوهرة ص ٤١٥ .

ثَانِيَاً : أنَّه سيد الخلائق جميعهم بما فيهم آدم ، لقوله في الحديث المتقدِّم : " أنا سيِّد النَّاس يوم القيامة" ، والحديث صريح في تفضيله على جميع الخلق حتَّى آدم عليه السَّلام ، قال تعالى : **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾**﴿النجم:٣﴾ ، وإنَّما تأدَّب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبيه آدم ، لأنَّه لا ينبغي للولد أن يقول : أنا أفضل من أبي ، إلَّا فيما ورد فيه الإذن الإلهي ، كما في حديث:" آدم ومن دونه تحت لوائي " . انظر: جواهر البحار ٢/ ٦٨ .

(٢) وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " . أخرجه مسلم ص ٢١١، كتاب المساجد ، باب : ايتاء مسجد النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم ٥٢٣.

والحديث يدلُّ دلالة صريحة على كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من سائر النَّبيِّين ، قال الإمام الطَّحاوي عقب ذكره للحديث :" وفي هذا ذكر تفضيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النَّبيِّين ، وفيهم إبراهيم صلَّى الله عليهم أجمعين " . انظر: بيان مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٦٢ ، وانظر : فيض القدير ٤/ ٥٧٧ .

(٣) أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّهم ليلة المعراج ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم :" وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ، جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ

بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ" . أخرجه مسلم ص ٢١١، كتاب المساجد ، باب : ايتاء مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم ٥٢٣.

ومن المعلوم أنَّه لا يتقدَّم إلَّا الأفضل ...

(٤) أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضِّل على الأنبياء بأمور جاء ذكرها في الحديث الصحيح : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " . أخرجه البخاري ص ٨٦ برقم ٣٣٥ ، كتاب التيمم ، باب : (١) ، مسلم ص ٢١١ برقم ٥٢١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

وفي رواية : " " فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " . أخرجه مسلم ص ٢١١ برقم ٥٢٣ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، البيهقي في الكبرى ٢/ ٤٣٣ ، دلائل النبوة ٦/ ٨٨ برقم ٢٢١٣ ، أبو يعلى في المسند ١٣/ ٢٥٥ برقم ٦٣٦ ، ابن حبان ٦/ ٨٧ برقم ٢٣١٣ ، الطحاوي في المشكل ٣/ ١٣ برقم ٨٥٥ ، أحمد في المسند ص ٦٥٢ برقم ٩٣٢٦ ، البغوي في شرح السنة ١/ ٨٥٣ ، الطبراني في الكبير ٧/ ١٥٤ برقم ٦٦٧٤ .

وفي أخرى : "" فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ " وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى . أخرجه أخرجه مسلم ص ١١ برقم ٥٢٢ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ابن أبي شيبه ٧/ ٤١١ ، البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢١٣ ، ابن حبان ١٤/ ٣١٠ برقم ٦٤٠٠ ، الطيالسي ١/ ٤٢٩ برقم ٤١٣ ، الطحاوي في المشكل ٣/ ١٢ برقم ٨٥٤ ، البزار ٤/ ٣٤٤ برقم ٢٨٤٥ .

وهناك روايات أخرى غير التي ذكرت أبانت عن خصائص خصّه الله تعالى بها دون غيره من المرسلين ، لدرجة أنَّ بعض العلماء جمعها في مصنَّفات خاصَّة ...

قلت : ومن المصنَّفات المصنَّفة في خصائص الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(١) نهاية السّول في خصائص الرَّسول لابن دحية الكلبي .

(٢) غاية السّول في خصائص الرَّسول لسراج الدِّين بن الملقن .

(٣) خصائص النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلاء الدِّين مغلطاي .

(٤) خصائص سيِّد العالمين ليوسف بن مُحَمَّد العبادي .

(٥) الأنوار بخصائص النَّبي المختار لابن حجر العسقلاني .

(٦) اللفظ المكرَّم في خصائص النَّبي المعظَّم لشهاب الدِّين أحمد بن عبد السَّلام المنوفي .
(٧) خصائص الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإمام الكامليَّة .
(٨) الإعلام بخصائص النَّبي عليه السَّلام لجلال الدِّين بن البلقيني .
(٩) الخصائص الكبرى للسُّيوطي .
(١٠) الدُّرر البهيَّة في شرح الخصائص النَّبويَّة لمحمَّد بن عمر النَّووي الجاوي .

ثمَّ إنَّ الرِّوايات الخاصَّة بخصائصه وفضائله التي خصّ بها دون غيره من الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت في تحديد العدد ، فإنَّ ذلك لا يعتبر تعارضاً واختلافاً في الرِّوايات ، لأنَّ الجمع بينها سهل ، وقد جمع العديد من العلماء بينها . قال الحافظ بن حجر :" وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنْ يُقَالَ لَعَلَّهُ اطَّلَعَ أَوَّلًا عَلَى بَعْضِ مَا اخْتُصَّ بِهِ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَى الْبَاقِي وَمَنْ لَا يَرَى مَفْهُومَ الْعَدَدِ حُجَّةً يَدْفَعُ هَذَا الْإِشْكَالَ مِنْ أَصْلِهِ وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ"

. انظر: فتح الباري ١/ ٤٣٦ .

ثمَّ إنَّ العدد لا مفهوم له ، كما هو رأي العديد من أهل الأصول، فقوله : " أُعطيت خمساً " لا يفيد نفي ما فوقها كالستَّة والسَّبعة ...

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

دَلَالَةُ الإِجْمَاعِ وَالعَقْلِ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً أَفضَل المُرْسَلين

أَوَّلَاً : دَلَالَةُ الإِجْمَاع :

الإجماع حجَّة شرعيَّة لازمة ، قال الإمام الخطيب البغدادي : " إِجْمَاعُ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ فِي كُلِّ عَصْرٍ حُجَّةٌ مِنْ حِجَجِ الشَّرْعِ وَدَلِيلٌ مِنْ أَدِلَّةِ الْأَحْكَامِ ، مَقْطُوعٌ عَلَى مَغِيبِهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَجْتَمِعَ الْأُمَّةُ عَلَى الْخَطَأِ... " . انظر: الفقيه والمتفقه ص ١٥٤ .

ومن أدلَّة حجيَّة الاجماع :

(١) قوله تعالى :**﴿ وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾**﴿النساء:١١٥﴾ . " وَتَقْرِيرُ الِاسْتِدْلَالِ أَنَّ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامٌ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبًا، بَيَانُ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى أَنَّهُ تَعَالَى أَلْحَقَ الْوَعِيدَ بِمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُشَاقَّةُ الرَّسُولِ وَحْدَهَا مُوجِبَةٌ لِهَذَا الْوَعِيدِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ اتِّبَاعُ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مُوجِبًا لَهُ لَكَانَ ذَلِكَ ضَمًّا لِمَا لَا أَثَرَ لَهُ فِي الْوَعِيدِ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَقِلٌّ بِاقْتِضَاءِ ذَلِكَ الْوَعِيدِ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ، فَثَبَتَ أَنَّ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامٌ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُ سَبِيلِهِمْ وَاجِبًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَدَمَ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ اتِّبَاعٌ لِغَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا كَانَ اتِّبَاعُ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ عَدَمُ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامًا، وَإِذَا كَانَ عَدَمُ اتِّبَاعِهِمْ حَرَامًا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ وَاجِبًا، لِأَنَّهُ لَا خُرُوجَ عَنْ طَرَفَيِ النَّقِيضِ" . انظر: تفسير الرازي ١١/ ١١٥

وفي تفسيره ، اعتبر الإمام القرطبي الآية دليلاً على صحَّة القول بالإجماع . انظر تفسير القرطبي ٥/ ٣٨٦ ، وانظر : محاسن التأويل ٣/ ١١٢١ فما بعدها ، التحرير والتنوير ٤/ ٢٥٥ ، روح المعاني ٣/ ١٤١ .

(٢) وفي قوله تعالى : **﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**﴿البقرة:١٤٣﴾ استدلَّ أهل أصول الفقه بهذه الآية على أنَّ إجماع علماء الأمَّة – أي المجتهدين– حجَّة شرعيَّة فيما أجمعوا عليه ، وفي بيان هذا الاستدلال طرق :

الأوَّل : قال الفخر : إنَّ الله أخبر عن عدالة الأمَّة وخيريَّتها ، فلو أقدموا على محظور لما اتَّصفوا بالخيريَّة ، وإذا ثبت ذلك وجب كون قولهم حجَّة ...

الطَّريق الثَّاني : قال البيضاوي : لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت عدالتهم .

الطَّريق الثَّالث : قال جماعة : الخطاب للصَّحابة ، وهم لا يُجمعون على خطأ ، فالآية حجَّة على الإجماع في الجملة ... انظر التحرير والتنوير ٢/ ١٧ ، تفسير الرازي ٤/ ٩٠ ، تفسير القرطبي ٢/ ١٥٦ ، تفسير البيضاوي ١/ ١١٠ ، تفسير القاسمي ١/ ٣٦٢-٣٦٣ .

(٣) وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا ... " . أخرجه أحمد ص ٢٠١٨ برقم ٢٧٧٦٦ ، الطبراني في الكبير ٢/ ٤٠٥ برقم ٢١٢٩ ، السيوطي في جمع الجوامع ١/ ١٣١٨٤ برقم ١٣٠٠٤ ، الترمذي ص ٣٦٠ برقم ٣١٦٧ ، وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ٣٢١ برقم ١١٩٦٦ ، وقال : رواه أحمد ، والطبراني ، وفيه راو لم يسم .

(٤) وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ... » . أخرجه البخاري ص ٣٩ برقم ٧١ ، كتاب العلم ، باب : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين ، مسلم ص ٣٩٨ برقم ١٠٣٧ ، كتاب الزكاة ، باب : النهي عن المسألة .

قال الحافظ ابن حجر :" قال النَّووي : فيه أنَّ الإجماع حجَّة . انظر : فتح الباري ١٣/ ٢٩٥ .

والأدلَّة على حجيَّة الإجماع كثيرة ، وهي مبثوثة في كتب الأصول ...

والمسائل التي أجمعت عليها الأمَّة عديدة ، وقد صُنِّفت في ذلك المصنَّفات ، ومن جملة ما أجمعوا عليه : أفضليَّة سيدنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع المرسلين ...

ومن أقوال العلماء في ذلك :

قال الإمام فخر الدِّين الرَّازي في كتابه : مفاتيح الغيب : " أَجْمَعْتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَعَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنَ الْكُلِّ ..." . انظر : تفسير الرازي ٦/ ١٦٥

(٢) وقال الإمام السَّعد التَّفتازاني في كتابه : شرح المقاصد :" وأجمع المسلمون على أنَّ أفضل الأنبياء مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : شرح المقاصد ٥/ ٤٧ .

(٣) وقال الإمام مُحَمَّد بن جعفر الكتَّاني بعد أن ذكر أنَّ الخلاف في المفاضلة بين الملائكة والنَّبيِّين مخصوص بغير نبيّنا مُحَمَّدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أمَّا هو – أي النَّبي – فالإجماع كما ذكره فخر الدِّين الرَّازي ، وأبو عبد الله الأُبِّي ، وغيرهما على أنَّه أفضل من المخلوقات على الإطلاق ، وأجلّهم عند الله ، وأكملهم بطريق العموم والاستغراق . وفي نظمٍ محصل المقاصد في كلامه على الأنبياء :

وإنَّهم أفضل في الأصح — من الملائكة دون قدح
نبيّنا ذا الخلق لا يشمله — ومن يعممه يخصّ قوله

قلت: كما يظهر في الأبكار للآمدي يرد بالأقطار

نبيّنـــا أفضـل بالإطبـاق   من كلِّ مخلوق على الإطلاق

وفي أرجوزة علم الكلام لسيَّد حمدون بن الحاج السّلمي المرداسي :

الرُّسل أفضل من الملائك   والمصطفى أفضل من أولئك

هو أجل ما اختفى وظهر   انعقد الإجماع فيه واشتهر" . انظر: جلاء القلوب ٢/ ٧٢ .

(٤) وقال الدُّكتور البوطي : " لا ريب أنَّ أفضل الخلق على الإطلاق هو نبيّناصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو ما أجمع عليه المسلمون قاطبة .... " . انظر: كبرى اليقينيات الكونية ص ١٩٩ .

وقد تناول هذا الأمر علماء الأمَّة في منظوماتهم وأشعارهم ...

قال الإمام اللقَّاني في جوهرته :

وأفضل الخلق على الإطلاق   نبيّنا فمِل عن الشِّقـاق

وقال صاحب الدُّرَّة المضيَّة :

وأفضل العالم من غير امترا   نبينا المبعوث في أمِّ القرى

وقال الإمام البوصيري :

محمَّد أشرف الأعراب والعجم   محمَّد خير من يمشي على قدم

ثَانِياً : دَلَالَةُ العَقْل :

وأدلَّة العقل على أفضليَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر المرسلين كثيرة ، منها :

(١) أنَّ معجزته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من معجزات سائر الأنبياء ، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء . انظر: تفسير الرازي ٦/ ١٦٦ .

وأفضليَّة معجزته على سائر معجزات الأنبياء تبدو في أمور كثيرة لم تكن في معجزات غيره من الأنبياء ... فقد امتاز القرآن العظيم على غيره من معجزات الأنبياء بـ :

(أ) أنَّه باقٍ لا ينسخ .

(ب) أنَّه محفوظ بحفظ الله تعالى ، حيث تعهد الله تعالى بحفظه فقال : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾«الحجر:٩» ، أمَّا معجزات غيره من الأنبياء، فقد انتهت لوقتها ، ولم يبق إلَّا خبرها ، ولم يشاهدها إلَّا من حضرها ...

(ج) أنَّه ناسخ لجميع الشَّرائع قبله ومهيمن عليها جميعاً .

(د) أنَّه احتوى على جميع مقاصد الشَّريعة ، وتناول أسباب سعادة الدَّارين .

(هـ) أنَّه آخر الكتب السَّماويَّة ، وذلك أنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى النَّاس كافَّة .

(و) أنَّه تضمَّن خلاصة التَّعاليم السَّماويَّة التي تضمَّنتها الكتب السَّابقة .

(ز) أنَّه سهل لا مشقَّة على النَّاس في فهمه ، وكذا لا يصعب عليهم العمل به ، قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾**﴿القمر:١٧﴾ .

(٢) أنّ دين أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ، بَيَانُ الْأَوَّلِ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْإِسْلَامَ نَاسِخًا لِسَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَالنَّاسِخُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الدِّينُ أَفْضَلَ وَأَكْثَرَ ثَوَابًا، كَانَ وَاضِعُهُ أَكْثَرَ ثَوَابًا مِنْ وَاضِعِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ . انظر: تفسير الرازي ٦/ ١٦٧ .

المَبْحَثُ الرَّابعُ

تَأوِيْلَاتُ العُلَمَاء لِأحَادِيْث النَّهْي عَن المُفَاضَلَة بين الأَنْبِيَاء

تبيَّن ممَّا سبق بيانه أنَّ التَّفاضل بين الأنبياء أمرٌ ثابت في الكتاب والسُّنَّة ، ومع ذلك فقد وردت أحاديث تنصُّ نصَّاً صريحاً على المنع من التَّفضيل ، وفي هذا إشكال ألجأ العلماء لدراسة تلك الأحاديث دراسة معمَّقة ، خلصوا من خلالها إلى الجمع بين ما قرَّره القران الكريم من التَّفضيل بين النَّبيِّين ، وبين ما ورد في الأحاديث الصَّحيحة التي تنهى عن التفضيل .

والأحاديث التي تنهى عن التَّفضيل هي :

() روى الشَّيخان بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ» . أخرجه البخاري ص ٤٥٢ برقم ٢٤١١ ، كتاب الخصومات ، باب : ما يذكر في الأشخاص والملازمة ، مسلم ص ٩٦٦ برقم ٢٣٧٣ ، كتاب الفضائل ، باب : فضائل موسى .

(٢) وروى الشَّيخان بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ» " . أخرجه البخاري ص ٦٥٦ برقم ٣٤١٣ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قوله تعالى : وان يونس لمن المرسلين ، مسلم ص ٩٦٧ برقم ٢٣٧٧ ، كتاب الفضائل ، باب : في ذكر يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفي رواية أبي هريرة : " لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ". أخرجه البخاري ص ٦٥٧ برقم ٣٤١٦ ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب : قول الله تعالى : وإن يونس لمن المرسلين ، مسلم ص ٩٦٧ برقم ٢٣٧٦ ، كتاب الفضائل ، باب : في ذكر يونس .

(٣) وروى الشَّيخان بسندهما عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: مَنْ؟

"، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «ادْعُوهُ» ، فَقَالَ: «أَضَرَبْتَهُ؟» ، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى» . أخرجه البخاري ص ٤٥٢ برقم ٢٤١١ ، كتاب الخصومات ، باب : ما يذكر في الأشخاص ، مسلم ص ٩٦٦ برقم ٢٣٧٣ ، كتاب الفضائل ، باب : من فضائل موسى .

(٤) وروى الشَّيخان بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لاَ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فُلاَنٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: " لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي" . أخرجه البخاري ص ٦٥٦ برقم ٣٤١٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : وإن يونس لمن المرسلين ، مسلم ص ٩٦٥ برقم ٢٣٧٣ ، كتاب الفضائل ، باب : من فضائل موسى .

(٥) وروى مسلم بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» . أخرجه مسلم ص ٩٦٣ برقم ٢٣٦٩ ، كتاب الفضائل، باب : من فضائل إبراهيم الخليل ، احمد ص ٨٨٤ برقم ١٢٨٥٧ ، النسائي في الكبرى برقم ١١٦٢٨ ، الترمذي ص ٥٣١ برقم ٣٣٥٢ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة لم يكن، أبو داود ص ٥١٠ برقم ٤٦٧٢ ، كتاب السنة، باب : في التخيير بين الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام .

هذه هي أشهر الأحاديث التي جاء النَّهي فيها عن المفاضلة بين الأنبياء ...

وحاصل ما ذكره العلماء من تأويلات لأحاديث النَّهي ، ينتظم في النّقاط التَّالية :

(١) إنَّما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل أو من يقوله بحيث يؤدِّي إلى تنقيص المفضول أو يؤدِّي إلى الخصومة والتَّنازع .

(٢) أو المراد : لا تفضِّلوا بجميع أنواع الفضائل ، بحيث لا يترك للمفضول فضيلة ، فالإمام مثلاً إذا قلنا أنَّه أفضل من المؤذِّن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذِّن بالنِّسبة إلى الأذان .

(٣) وقيل : النَّهي عن التَّفضيل إنَّما هو في حقِّ النُّبوَّة نفسها كقوله تعالى : **﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾**﴿البقرة:٢٨٥﴾ ، ولم ينه عن تفضيل بعض الذَّوات على بعض لقوله : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾**﴿البقرة:٢٥٣﴾ ، قال القرطبي : " وهذا قول حسن، فإنَّه جمع بين الآي والحديث من غير نسخ " . انظر: تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٣ .

(٤) الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّخْيِيرِ إِنَّمَا هِيَ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ بِالْمُخَايَرَةِ لِأَنَّ الْمُخَايَرَةَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ أَهْلِ دِينَيْنِ لَا يُؤمن أن يخرج أحدهما إِلَى الإزدراء بِالْآخَرِ فَيُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ فَأَمَّا إِذَا كَانَ التَّخْيِيرُ مُسْتَنِدًا إِلَى مُقَابَلَةِ الْفَضَائِلِ لِتَحْصِيلِ الرُّجْحَانِ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ " . انظر: فتح الباري ٦/ ٤٤٦ ، ٦/ ٤٥٢ ، وانظر : اليواقيت والجواهر ٢/ ٢٢ ، عون المريد ٢/ ٧٨٢ ، تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢ ، تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ ، فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٣٦ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٧-٣٨ ، جواهر البحار ٢/ ١٢٩ ، العقائد الإسلامية لسيد سابق ص ١٩٩ ، فتح القدير ص ٢٣٢.

(٥) أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا ، لأنَّ التَّفضيل إذا كان على وجه الحميَّة والعصبيَّة وهوى النَّفس كان مذموماً ، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرَّجل حميَّة وعصبيَّة كان مذموماً ، فإنَّ الله حرَّم الفخر ، وقد قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾**﴿الإسراء:٥٥﴾ ، وقال تعالى : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾**﴿البقرة:٢٥٣﴾ ، فعُلم أنَّ المذموم إنَّما هو التَّفضيل على وجه الفخر ، أو على وجه الانتقاص من المفضول .

(٦) أَنَّ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى»، وَقَوْلَهُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِّ، أَيْ: لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِعَيْنِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْعُبُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ . انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ١٧٠- ١٧٢ ، تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢ ، تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ .

(٧) أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك تواضعاً منه ، مع علمه أنَّه أفضل الأنبياء . انظر: تأويل مختلف الحديث ص ٧٨ ، اليواقيت والجواهر ٢/ ٢٢ ، تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ ، البداية والنهاية ١/ ٣٣١ ، دلائل النبوة ٥/ ٣٧٩ ، فتح القدير ص ٢٣٢، الشفا ١/ ٤٤٠ ، أصول الدِّين الإسلامي ص ٣٣٤ .

(٨) أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك قبل العلم بتفضيل الله له على سائر الأنبياء والرُّسل مع مراعاته لعلوّ مراتبهم الباذخة ، وجلالة مناصبهم الشَّامخة ، ثمَّ أعلمه الله تعالى بأنَّه سيِّد الأوَّلين والآخرين ، وأفضل من جميع الأنبياء والمرسلين ، وأمر بتبليغ ذلك فبلغه كما أمر ، فالقرآن ناسخ للمنع عن التَّفضيل . انظر: لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٩٨ ، تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ ، التحرير والتنوير ٢/ ٤٨٤ ، تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢ ، مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ١٢ ، صحيح مسلم شرح النووي ١٥/ ٣٨ ، فتح القدير ص ٢٣٢ ، الشفا ١/ ٤٣٩ .

(٩) أنَّ المنع من التَّفضيل إنَّما هو من جهة النُّبوَّة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنَّما التَّفضيل في زيادة الأحوال و الخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات ، وأمَّا النُّبوَّة في نفسها فلا تتفاضل ، وإنَّما التَّفاضل في أمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم الرُّسل ، ومنهم أولو العزم من الرُّسل ، ومنهم من رُفع مكاناً عليَّاً ، ومنهم من أُوتي الحكم صبيَّاً ، وأُوتي داود زبوراً ، وبعضهم البيِّنات ، ومنهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات . انظر: تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٨ ، فتح القدير ص ٢٣٢ ، الشفا ١/ ٤٤١ .

(١٠) ليس مقام التَّفضيل إليكم ، إنَّما هو إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعليكم الانقياد والتَّسليم له ، والإيمان به . انظر: تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ .

(١١) إنَّما خصَّ سيِّدنا يونس بالذِّكر خشية على من سمع قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ﴿القلم :٤٨﴾ ، أن يقع في نفسه تنقيصه ، والحطّ من مرتبته ، فبالغ في ذكر فضله سدَّاً لهذه الذَّريعة . انظر: هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ٢/ ١٨٤ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٣٢ ، الشفا ١/ ٤٤٠

(١٢) أنَّ النَّهي الوارد في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى " يحتمل التَّأويل على وجهين :

الأوَّل : أن يكون المراد بقوله (أنا) : الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال الخطَّابي : وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث ، فقد جاء من غير هذا الطَّريق أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : "ما ينبغي لنبي أن يقول إني خير من يونس بن متَّى " فعمَّم الأنبياء كلَّهم فدخل هو في جملتهم . انظر: الشفا ١/ ٤٤١ .

الثَّاني : أن يكون إنَّما أراد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لا ينبغي لعبد : من سواه من النَّاس ، أي : لا ينبغي للعبد القائل أن يقول ذلك .

هذا محصّل ما قاله العلماء من تأويلات للنّهي الوارد في الأحاديث الشّريفة عن التّفضيل بين النّبيّين ، والحقّ أنَّ بعضها لا يخلو من مقال ...

فالقول بأنَّ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن التّخيير والتّفضيل تواضعاً منه ، مع علمه بأنّه أفضلهم ، فهذا لا يسلم من الاعتراض ، كما قال القاضي عياض . انظر الشفا (١/ ٤٤٠) .

لأنَّ هذا التّوجيه لا يتناسب مع قوله في الحديث الآخر : " مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ " . أخرجه البخاري ص ٨٧٥ برقم ٤٦٠٤، كتاب التفسير، باب : قوله : أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح.

إن قلنا بعود الضّمير (أنا) الوارد في الحديث على الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : تحفة الأحوذي ٨/ ٩٢ .

أمّا إن حمل على غير الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذا لا شيء فيه ، لأنَّ التّواضع خُلق إسلامي رفيع جاء الأمر به في القرآن والسُّنَّة ، قال عليه الصّلاة والسّلام : «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». أخرجه مسلم ص ١١٤٩ برقم ٢٨٦٥ ، كتاب الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النّار ، ابن ماجه ص ٤٥١ برقم ٤١٧٩ ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ، أبو داود ص ٥٣١ برقم ٤٨٩٥ ، كتاب الأدب ، باب : في التواضع .

ومن قال بأنّ النهي ورد قبل أن يعلم عليه الصّلاة والسّلام أنه سيد ولد آدم ، وأنّ النهي عن التفضيل منسوخ بآيتي البقرة والإسراء ، فهذا فيه نظر ، كما قال ابن كثير " لَأَنَّ هَذَا مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَا هَاجَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِلَّا عَامَ خَيْبَرَ مُتَأَخِّرًا، فَيَبْعُدُ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهَذَا إِلَّا بَعْدَ هَذَا ". انظر: البداية والنهاية ١/ ٣٣١ .

ثمَّ إنَّ القول بالنّسخ هنا مردود ، لأنَّ آيات التّصريح بالتّفضيل آيات مكيّة ، وأحاديث النّهي كانت في المدينة ...

وأمّا قول من قال : إنَّ النّهي إنّما هو عن تعيين المفضول ، أمّا التّفضيل فيما بينهم بالجملة دون تعيين المفضول فهو دلالة النّص ...

ففي هذا التّوجيه نظر ، لأنَّ القرآن ذكر الوجوه التي فض،ل بها بعض النّبيّين على بعض ، فقد امتدح الله تعالى أولي العزم من الرُّسل الذين هم أفضل الرُّسل فقال تعالى آمراً نبيّه بالتّأسّي بهم : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾﴿ الصافات:٣٥﴾ .

قال ابن كثير : " لَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾**﴿الأحزاب: ٧﴾ ، وَفِي الشُّورَى فِي قَوْلِهِ : **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾**﴿الشُّورَى: ١٣﴾ . وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى عَلَى الْمَشْهُورِ ..." . انظر: تفسير ابن كثير (ص ١٠٢٠) .

ثمَّ إنَّ الرُّسل أفضل من الأنبياء كما هو معلوم ، إذ كلُّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً ، وهذا تعيين، كما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر " تعيين لا يخفى لأنَّه يتضمَّن أفضليَّته على جميع الرُّسل ، وأنَّه مقدّمهم...

الخَاتِمةُ

بعد هذا التّطواف في رحاب الكتاب والسُّنَّة ، نخلص إلى أهم نتائج البحث ، وهي :

(١) أنَّ نبيّنا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الرُّسل على الإطلاق ، دلَّ على ذلك آيات الكتاب ، والسُّنَّة ، والإجماع ، والعقل .

(٢) للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصائص ومزايا ومكرمات وأعطيات تنوء عن العدّ والحدّ ، بها فضّل على سائر النَّبيِّين ، من أشهرها : أُعطي جوامع الكلم ، نصر بالرُّعب مسيرة شهر ، أحلّت له الغنائم ، جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أرسل إلى الجن والإنس ، خُتم به النَّبيُّون ، أعطي المقام المحمود ، دينه يسر ، حرمة رفع الصَّوت فوق صوته ، حرمة الجهر له بالقول اثناء الكلام معه ، أخذ الله الميثاق على النَّبيِّين بأن يؤمنوا به وينصروه ، الطَّعن فيه طعن في الدِّين ، حفظ الله له معجزته من التَّبديل والتَّحريف ، تحريم ندائه باسمه أو كنيته ، شهادة أمَّته على النَّاس يوم القيامة ...

(٣) أنَّ الأحاديث الواردة بالنَّهي عن تفضيل بعض النَّبيِّين على بعض لا تعارض النُّصوص القرآنيَّة المصرِّحة بالتَّفضيل ، لأنَّ النَّهي الوارد بالأحاديث محمول على النَّهي عن التَّفضيل على وجه الحميَّة والعصبيَّة والانتقاص ، أو على التَّفضيل المؤدِّي إلى الخصومة أو الفتنة .

وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن

فِهْرِسُ المَوْضُوْعَات